بمناسبة ملح عاشوراء :

أثر الخرافات في المجتمع

يظهر أن الخرافات من مستلزمات الضعف البشرى ، وجدت بوجوده وتطورت معه ، فنشب وتنمو فى حجر جهالته ، وتقل وتصقل بشمس استنارته . ولا توجد أمة تعيش فى ضوء الحضارة الرفيعة ، أو قبيله تضرب فى بيداء الفطرة ، إلا ولها خرافاتها تمشى مع عقليتها ضعفا وقوة ، وتتناسب مع حياتها كثرة وقلة وارتقاء وضعة ، فبينما يتشاءم الأوربى مثلا من إشعال ثلاث لفائف من التبغ بعود واحد من الثقاب ، وينفر من رقم ١٣ ، وبينما تقوم فى أمريكا خرافة آخر شهر أكتوبر المعروفة بليلة الهالويين ، يقوم فيها الأطفال باقتلاع أبواب الحدائق وسرقة أصص النباتات وإتلاف إطارات السيارات ورشق المواقد بالحجارة ثم يزعمون صباحا أن الساحرات هى التى قامت ليلا بفعل ذلك .

نعم بينما يقوم ذلك فى بلاد الفن والعلم — يعيش سكان أواسط أفريقا و بلاد الزيدية بآسيا ومن فى مستواهم ، عيشة منسوجة من السحر وأطلسمات والتعاويذ و خرافات مما لا يكاد يحصى أو يعد ، غير أن بعض الخرافات فى البلاد المتمدنة ، أوالتى فى طريقها إلى التمدن لا تخلو من فوائدها الاجتماعية والدينية ، وتكاد غايتها تشفع وسيلتها ، فخرافة عيد الميلاد المسيحى التى تزعم أن " بابا نويل " يزور الأطفال ليلة الميلاد فيباركهم و يترك لهم فى جواربهم هداياه السارة من الحلوى و لعب وغيرها ، هذه الخرافة وسيلة تربوية لا بأس بها فى غرس حب المسيح فى نفوس الأطفال منذ الصغر ، وتنشئتهم على التفانى فيه ، فالطفل لا يستطيع أن يهضم الأدلة ولا يفهم النظريات ، لأنه لا يفكر إلا بمعائه ولا يفهم إلا بعاطفته ، وقد لا يجد الغربيون ما هو أيسر وصولا إلى نفس الطفل من مثل هذه الأبواب . على أنه لا يزال فى أوربا وأمريكا سيل من الكتب التى تعنى بسرد الخرافات ، ولاسيما اليونانية منها ، غذاء لرغبة بعض الناس فيها ، و إشباعا للضعف الإنسانى فى هذه الناحية ، وما أشبه هذه الكتب من بعض الوجوه بما لدينا اليوم مما يتلى على العامة فى المقاهى ويستقبلونه بعاطفة من الحماسة والتحزب كقصص أبى زيد الهلالى سلامة والزير سالم وسيف بن ذى يزن وغير ذلك مما يصور هذه الحروب الخيالية والروايات الخرافية ، وإن كانت لا بأس بها من حيث إنها مثار للشجاعة ومبعث للوفاء والتضحية .

بيد أنه لدى المسلمين اليوم من بساطة دينهم وسير أبطالهم ما يغذى وسائل التربية فى الناشئة والكبار عند جميع المناسبات ، دون حاجة إلى ابتكار الخرافات ، تخفيفا من أصرارها فى بلاد تحبو نحو الحضارة الرفيعة .

ومما لا بأس به أن يخرج أصحاب الحرف والصناعات والأهالى مشاة وركبانا إلى ظاهر المدن السورية فى موكب ضخم يتقدمه الفرسان يتبارزون بالسيوف ، ويتبارون فى العدو ويقيمون أسواقا للبيع والشراء ، ويشرع أرباب الطرق الصوفية ألويتهم وشاراتهم ويطوفون فى نظامهم واتساقهم مباهين باحتمال طعنات السيوف والسنان فى ضروب وألفانين تكاد تذهب بلب النزلاء الأجانب ويكون ذلك فى خلال أيام عيد الفصح المعروف وتسمونه عندهم "بخميس المشايخ . " وليس بين أعياد العرب أو الإسلام ما يحمل هذا الاسم ، ولكنها على كل حال فرصة اجتماعية لا بأس بها يبعث الاستعداد لها على إجادة فنون الفروسية ، وضروب الرياضات الأخرى وتغذية النهضة الأدبية وإنعاش الحركة الاقتصادية ، والترويح عن النفس فى براءة وطهر .

وما أشبه هذا ببعض مايحدث بمصر فى أوائل رمضان وليالى الميلاد المحمدى ، غير أن مايحدث فى مصر له سبب معروف ، أما فى سوريا فان هذه التسمية فيما أعلم غير مفهومة ، ومبعثها غير واضح ، ولعل لها سببا قد زالت بواعثه ، وبقيت مسبباته .

ولولا ما يقترن فى مصر بخرافة (أربعاء أيوب) من الكذب الفاحش على رسول من رسل الله ، والاعتقاد بأنه أصيب بمرض منفر لا يجعله أهلا لأداء رسالته . نعم لولا ذلك لكان لهذه الخرافة أثرها الطيب فى المجتمع التى تغشاه ، فقد يمر العيد تلو العيد على بعض الناس ولا سيما الأطفال دون أن تجرى يد التنظيف على أجسامهم ، بينما لا يمكن أن يمر عليهم (أربعاء أيوب) هذا ، دون أن يغتسلوا أولا بالصابون ثم بنبات الزعراع المعروف اعتقادا منهم بأنه يمنح الأجسام مناعة قوية ضد الأمراض الجلدية ويشفى المصاب بها كما شفى سيدنا أيوب عليه السلام مما كان قد أصابه فى جلده من هذه الأمراض ، وصبر عليها أمدا طويلا حتى أنعم الله الاستشفاء بهذا النبات ! !

وقد ترمد عين الشخص فى القرى مرة وثانية وهو من دوائها على بعد خطوات ، لكنه قلما يعنى بها ، ولكن محال أن يمر به "سبت النور" المعروف دون أن يكتحل أو يمد عينيه بقطرات من دواء عملا بهذه العادة أو هذه الخرافة وخوفا من نذرها المشهورة ، وقد يعاف المرء أكل البصل أو الدنو منه على ما فيه من خصائص طبية ، ولكنه لا يبيت ليلة (شم النسيم) دون أن يأكل بصلا أو يكون بالقرب منه تلافيا لأضرار (الشمامة) التى يتخيلها البعض حيوانا مفترسا والبعض الآخر حشرة سامة تطيف برؤوس النوام فى هذه الليلة ، حاملة جراثيم الإيذاء لا ينبيها عنهم إلا روائح البصل ! !

وإذا كان لما تقدم من خرافات كثير من الفوائد الاجتماعية فإن فى مصر الكثير من الخرافات الضارة بالمجتمع مرتدية أزياء الدين . ففى شهر المحرم من كل عام إلى اليوم العاشر منه، تطوف نسوة ورجال فى القرى والمدن ينادون فى زهو وحيلاء "ملح عاشورة المبارك "حليمة رقت النبى من العين يالله السلامة من العين" فاذا دعى البائع أو البائعة للشراء منها سمعت من الألفاظ المسجوعة، والعبارات المنسقة، ما يغرى كل جهول بالشراء منها، عتقادا بأن ملح عاشوراء تعويذة قوية ضد العيون الحاسدة والأرواح الشريرة، وهذا الذى زعموه ملحا ليس إلا نشارة خشب قد لونها البائع بعدة ألوان وزينها بمختلف الصور، وما تقديمه للبيع على هذا الوضع، إلا غش وتدليس من الناحية التجارية، وما الاعتقاد بتأثيرها ضد الحواسد والشرور، إلا مهانة عقلية وثلمة دينية، ووهن فى خلق الشجاعة، وإشاعة للخرف والشعوذة عن طريق القدوة بين الناس .

صحيح أن للمسلمين — فى يوم عاشوراء — ذكرى عاطرة تستطيع أن تتحدث طويلا عن إباء الضيم والاحتمال فى سبيل العقيدة، والتضحية بالأهل والوطن والمال من أجل الفكرة السليمة، لأنها يوم دخوله عليه السلام المدينة مهاجرا من مكة ليحوض معركة جديدة فى ميدان جديد ويتلمس توفيقا جديدا بعد الذى حدث؛ وصحيح أن لبنى إسرائيل فى هذا اليوم ميدانا فسيحا للعبادة صوما وصلاة واستغفارا، وأنه اليوم الوحيد الذى يصلون فيه خمس صلوات، ويصومون فيه أكثر من أربع وعشرين ساعة متوالية، وهو المسمى عندهم بالصوم الكبير وصحيح أن الاستعاذة بالله من شر الحسد قد وردت فى كتابه، وأن يعقوب قد قال لأولاده الكثر "يابنى لاتدخلوا من باب واحد و دخلوا من أبواب متفرقة" وأن الرقيا من المرض بالقرآن قد وردت فى كتب السنة، ولكنه مع الأسف! لم يكن عن طريق ملح عاشوراء المبارك! الذى لم يرد بفوائده دين من الأديان السماوية كوسيلة من وسائل الوقاية ضد هذه الأضرار .

وقد لا ينظر البعض نظرة استيعاب وتقدير لمبلغ الأخطار التى تتخلف عن خرافة "ملح عاشوراء" و"بغلة العشر" و"خروف الزار" و"شمامة عيد النسيم" و"قلادة المشاهرة" و"طست الخضة" و"أبو رجل مسلوخة" و"صباع الكافر" و"فسوخة العين"، و"شوشة الهدهد" و"عين العفريت" و"حلد الثعبان" و"فتح الكتاب" و"المندل" و"الكتشينة" و"قراءة الفنجان" و"الرمل" و"أم راز حديد" و"جنية البحر" و"عفريت القتيل" وغير ذلك من الخرافات التى تمكن روح الجبن فى الناشئة وتفسد عليهم آفاق تصورهم لحقائق الأشياء وتخلق فيهم روح الاستسلام للمراعم والشعوذة وسرعة الهزيمة والاستكانة والفشل فى الكبر، وإهمال وسائل الاستشفاء العلمية، وتزيد فى تفشى العدوى واستشراء الأمراض، ورواج بضاعة الدجل وكساد سوق العلم الصحيح .

إن الشعوذة والخرافات كالذباب لا يتغذى إلا من الجراحات الدامية ، وكالخفاش لا ينتشر إلا فى الظلام الدامس ، وبقدر سطوع شمس العلم والإيمان بقدر ما تختفى هذه المزاعم الضارة بكيان الأمة وذهنيتها ومجتمعها ودينها ، ومهمة وزارة الشؤون الاجتماعية أن تقضى نهائيا وبصفة حازمة على تجارة "ملح عاشوراء" وجلسات الزار ودجالى الأحاجى والرمل والمندل والفنجان والكشينة ، وما إلى ذلك من أنواع المعتقدات الكاذبة والبدع الشائعة ، وإنا لنرجو إعداد مذكرة الى وزارة المعارف تحصى فيها أنواع هذه الخرافات حتى تمكن محاربتها فى نفوس النشء منذ الصغر والعمل على إبادتها وآثارها بقدر المستطاع ثم ارسال صور منها الى وزارة الأوقاف وقسم الوعظ والإرشاد ، ومشيخة الأزهر والمعاهد الدينية ، ليقوم كل فى دائرته بمحاربة هذه الأوضار ، وكشف أضرارها للطلبة والكافة حتى تصح عقيدتنا وتسلم عقليتنا وتنمو شجاعتنا وجرأتنا ونأمن شر العثرات القومية والسياسية على مر الأيام وكر الدهور .

عبد الحميد المشهدى